خاطرات تثيرها كثرة الاستشهادات
بأبيات لابن المعتزّ

أ. عبد القادر زمامة

الباحثون والدارسون والناقدون والمهتمون بالأدب العربي في هذا العصر، نصوصاً وأعلاماً وموضوعاتٍ وعصوراً ومميزاتٍ إقليمية وتاريخية، أَلِفوا أن يجدوا فيما يمر أمام أعينهم من أفكار وآراء وتجارب وتعابير ومؤلفات ونصوص شعرية وأُخرى نثرية... أَلسنَتَهُم أحياناً تتحرك بما نَسُوه أو تناسَوه مما كان قد خُزن في ذاكرتهم، كما ألفوا أن يجدوا ذاكرتهم اليقِظَة تئنُّ من تزاحم هذه الخاطرات الأدبية والفكرية والنقدية، التي تأبى إلا أن تحلق بهم مراتٍ في آفاق: قديمة وحديثة، ضيقة ومتَّسعة، ترفعهم بها رافعة، وتخفضهم بها خافضة، تبعاً لملابسات ومناسبات وظروف، تقتضي منهم أحياناً تشبيهاً أو تمثيلاً أو استشهاداً أو جمعاً ضرورياً لأشباه ونظائر تأتيهم من هنا ومن هناك.

فهذا البيت من الشعر العربي العباسي، سمعتُه وحفظتُه منذ صباي المبكر. واستشهدتُ به مرات، كما سمعتُ غيري يستشهد به في عدة مناسبات، لأنه كان في نظري ونظر غيري إذ ذاك نموذجاً لأدب يخاطب المشاعر ويُرضي الأذواق ويسمو في التعبير ولا يُسِفُّ في التصوير. ويصح أن يستشهد به الإنسان الأديب في المكان المناسب.

ثم تهيأتُ لمجابهة النّصوص الأدبية في مصادرها وربط فروعها بأصولها، فوجدتُ نفسي تبحث عن صاحب هذا البيت وديوانه، والمصادر التي ذكرتْه، والأقلام التي

استشهدتْ به قديماً وحديثاً، لأربط بين هذا البيت والقصيدة التي جاء فيها والمضامين التي جاء هذا البيت معبّراً عنها.

وأسارع فأقول إن هذا البيت هو:

وكانَ مَاكَانَ مِمَّا لستُ أَذكرهُ فظُنَّ خَيراً ولا تَسْأَلْ عنِ الخبر

فالبيتُ كما هو معلوم للشاعر العباسي ابن المعتز[١]، يقع ضمن قصيدة لا تتجاوز عشرة أبيات كان هذا البيت آخرها.

وقد أثارت هذه الأبيات العشرةُ اهتمام المؤرخ الأديب شمس الدين ابن خلكان المتوفَّ سنة ٦٨١هـ فنقلها بتمامها في كتاب: وفيات الأعيان في ترجمة ابن المعتز بعد التنويه بالقصيدة وصاحبها[٢].

ومنذ ذلك اليوم الذي عرفتُ فيه القصيدة في مصادرها، وتفهمتُ موضوعها، وما كان يقصده الشاعر ابن المعتز بهذا البيت من إجمال وإبهام للموضوع الذي خاض فيه كما خاض فيه آخرون، صِرتُ إذا صادفتُ هذا البيت في كتاب قديم أو حديث، أو في بحث أدبي، أو مقال نقدي، أو رسالة جامعية، وما أكثر ما يستشهد الناس بهذا البيت، أتجاوزُه بعد قراءة الكلمة الأولى، لأنه في رأيي الخاص، كان قد وُضع مع كثير من الأبيات المبتَذَلة عند المستشهدين بها في كل مناسبة، في زاوية من زوايا ذاكرتي. وهي الزاوية التي أضع فيها اجتهاداً مني كلَّ ما أريد أن أنساه، أو أتناساه، من أشعارٍ وكلمات وأفكار وموضوعات، استهلكها التكرار والابتذال عند السابقين واللاَّحقين. ولشهرة بيت ابن المعتز يَقَعُ الاستشهادُ به لا عند عامّة أَهل المعرفة والثَّقافة، بل وكثيرٍ من خاصَّة

(١) ديوان ابن المعتز ص ٢١٨– ٢١٩.

(٢)وفياتُ الأعيان ج٢. ص ٢٥٦. ط. القاهرة. تحقيق محيي الدين عبد الحميد ١٩٤٨م.

الباحثين، والدارسين، ممن يُظَنُّ بهم أنهم عرفوا كل ما يتعلق به وكل ما قَصَد به قائله يوم نَظَمَهُ، وجعَلَه خاتمةً لما تحدث به في موضوع خاصٍ به، كان معروفاً في عصره.

وإننا لا ننسى أن الاستشهاد به جاء في فصولٍ مهمة ومفيدة، من كتب مؤلفُوها من: رجال التّصّوف، والإرشاد، والتّذكير، وما كان يسمَّى بكتب: الحَقَائِق، والرَّقائِق، وغيرها.

كما جاء الاستشهاد به في كتبٍ ورسائل، مُؤلِّفُوها من أهل التاريخ، والأدب، والنقد، والرحلة، وغيرها، ولمؤلفيها إشعاعاتٌ مختلفة.

وكأنَّ المستشهدين بهذا البيت وَجَدوا فيه ضالتهم المنشودة، حينما يُريدون طيّ بِسَاط الحديث في موضوع، وإبهامَ ما يقتضي المقامُ إبهامه لِتَذْهَبَ نَفْسُ القارئ –كما يقولون– مذاهبَ شتى، اقْتداءً بالشاعر الذي ختم موضوع قَصِيدِهِ به لأول مرّة، في القرن الثالث الهجري.

ومن باب غَلَبة الظن أنَّ الذين أَسْرفُوا على أنفسهم، وعلى قرائهم بكثرة الاستشهاد بهذا البيت، وقلَّد اللاَّحق منهم السَّابقَ، في الموضوعات المختلفة: جديّة وهذلية، موضوعيّة وذاتيّة، لو تأمَّلوا في الموضوع، وتعمَّقوا في المقاصد، لكان لهم رأي آخر في الاستشهاد بهذا البيت.

وبطبيعة المنهاج الذي ننهجه في مقالنا هذا لا ننتقدُ خاصة، ولا عامَّة، من الذين استشهدوا بهذا البيت، ولا نعيب المؤلفين: القدامى والمحدثين، وإنما نريد فقط التنبيه بلباقةٍ، واتزان، وموضوعية على أن يكون الاستشهاد بنص أدبي مناسب للموضوع يزيده إيضاحاً، ويُكسبُه إشراقاً وتألقاً، ويُبعده عن مرجعية لا تليق به. وأن يتصرف الكاتب تصرفاً يجعله حذراً

لا يسُوق ذلك النصَّ المقتطَعَ من أصله المعروف كما يسوق الحِكمة الشهيرة بين النَّاس، أو المثل المضروب بينهم، ويمرّ على ذلك مرَّ الكرام. مهما كان الموضوع الذي يكتب فيه، أو يتحدث، أو يُخبر عن أشياء لها مكانتُها، وتقديرُها. فلكلٍّ مقام مقالٌ، كما يقولون، ولكل موضوع منهاجٌ يليق به، واستشهادٌ يناسبه لمزيد من الإيضاح.

– ولا ينبغي أن نقول هنا: إنَّ هذا البيتَ جَرى مَجْرى المثل، كما جرت أبياتٌ أخرى، مجرى الأمثال، فيصبح الاستشهاد بها جائزاً، ولو كانت في عُمق الدلالة مغايرةً، أو مناقضةً لما قيلتْ فيه أول الأمر.

– ولا ينبغي أن نحاول هنا تضييق تلك القاعدة المعروفة، والتي كان يعرفها بعض المؤلفين والدارسين، والتي قَعَّدَهَا أهلُ الرأي السَّديد، والفهم الرشيد للنّصوص، والتي تقول:

«**العِبْرةُ بعُموم اللّفظ، لا بخصوص السَّبَب.**» **ويُرّددون ذلك مرَّات**، فتلك قاعدة مُحترمة، تُطبَّق في نصوصٍ وموضوعات محترمة، مُسَلَّمة، لها مكانتُها الخاصة، فوق كل اعتبار، ولا مجال للحديث الآن عنها.

وقد آن الأوان للحديث عن بيت: **وكان ما كان**... وصاحبه، – وبعض الملامح التي يجر إليها – موضوعيّاً – الحديث.

– فالشاعر هو ابنُ المعتز الشهير بأشعاره، وتشبيهاتِه، ومُركَّباته النَّفْسِيَّة، وعُقَده الذَّاتية، التي كان يُعانيها، ويحاول نسيانَها، وشَغْل النّاس عنها، منذ أُصيب والدُه: المعتز بمأْسَاةِ خَلْعِهِ، وقَتْلِهِ. وبَقِيَتْ المأساة تنتظره هو حتّى حَلَّ به ما حَلَّ بوَالِدِهِ المعتز وجده المتوكل وما حلَّ بمن جاء بعدهما من العبّاسِيّين في تاريخهم الطويل، المعروف مع المتغلبين عليهم.

وقد تحدثت كتب التاريخ، والأدب، والنَّقد، والطبقات عن الشاعر ابن المعتز، ونال حظاً لابأس به من الدراسة عند المهتمين بتاريخ الأدب العربي في القرن الثالث الهجري، ممَّا هو معروف، متداول، يُبرز مكانته الشعرية في الأدب العربي التي لا جدال فيها.

– والقصيدة التي جاء بيت: (وكان ما كان) في آخرها، موجودة في ديوان الشاعر، وكان يتحدث فيها عن دار سكناه التي كان يسكنها بالقرب من (سُرَّ مَن رأى)، والواقعة بالمكان المعروف باسم: «المطيرة» المحاط بالبساتين والمتنزَّهات في ذلك العصر، وفي تلك المنطقة بالذات. وكانت هذه «المطِيرة» قريبة من دَيْر شهير هناك. وهو: «دَيْر عَبْدُون» الذي سجل الشاعر ابن المعتز اسمه في هذه القصيدة، كما سجَّل شعراءُ آخرون أسماء أدْيِرَة أخرى معروفة، كانوا يتردَّدُون عليها، ولهم فيها أخبارٌ وذكرياتٌ وأحاديث ووقائع مع رُهبانها، والمزَنَّرين من قُصَّادِها، الذين يتسابقون إليها سَحَرَ كلَّ يومٍ، في هيئة وطقوس خاصة بهم(٣).

وابْنُ المعتز تحدث بأسلوبه الخاص، ومشاعره الخاصة عن داره بالمطيرة، ودَيْر عبدون القريب منها، وما كانت تجيش به نفسه، وهو يتابع نشاط وحركات رُواد هذا الدَّيْر، كما كان يفعل أمثاله من شعراء ذلك العصر.

– ومن الجدير بالذكر هنا أن نجد ياقوت الحموي في كتابه: (معجم البلدان) يذكر هذه «المطيرة»، ويذكر دَيْر عَبدون، ويُعَرِّف قراء معجمه هذا بعبدون، وأخيه صاعد، ومعلومات أخرى، بل إنه يأتي بنص قصيدة ابن المعتز،

(٣) انظر كتاب الديارات لأبي الحسن الشابشتي، ط. بغداد ١٩٥١م.

التي ختمها بقوله فيها(٤):

وكانَ ما كانَ مما لستُ أذكره فظُن خيراً ولا تسأل عن الخبر

ونحن بطبيعة عملنا الدراسي والنقدي في هذا العصر لا نظنُّ شراً، ولا خيراً، ولا نسأل عن الخبر، استجابة لرغبة شاعرنا المِفَن: ابن المعتز، بل إننا نسكت عن هذا الموضوع الذي جاء في شعره، وفي شعر غيره سكوتاً.

– وهذا لا يمنعنا من أن نبدي في هذا العصر ملحوظة ترى من المستحسن ألاّ نكثر من الاستشهاد بهذا البيت في كل الموضوعات: الجدية، والهزلية. لاسيما حينما يكون البَونُ شاسعاً بين شاعرنا: ابن المعتز العباسي ومقصده، وبين مقاصد الآخرين المستشهدين ببيته بكثرة، وفي كل الموضوعات.

– وأظنني بعد هذا لا أحتاج إلى الاعتراف والتأكيد أن بيت ابن المعتز في حدّ ذاته ومن الناحية النقدية الموضوعية له إشراقة أدبية بيانية لا تخفى، عندما نضع الموازين ونُحدد المفاهيم.

– فمن ناحية المضمون، حقَّق الشاعرُ بدقَّة هدفَهُ في الإبهام والطيِّ، أو ما يُسمَّى في عُرف عصرنا هذا بالتَّعتيم. فجاء باحْتِشَام ذاتي، حاول به أن يَجُرَّ ذَيْلَ التناسي والتستر، وألا يترك هناك ثغرةً للفضوليين الذين يحلو لهم أن يُحرجوا الشعراء بتساؤلاتهم، وسيئ ظنونهم، كما يحلو لهم أن يحاولوا تفسير ما لا يُفسَّر، وتفصيل ما لا يُفَصَّل، عند هؤلاء الذين يهيمُون في كل وادٍ.

– فالمضمون حُقق بذَوْقٍ، ولَبَاقةٍ. وهذا سرُّ جمال المضامين التي تروق

(٤) انظر ما ذكره عن المطيرة في حرف الميم، وما ذكره عن دَيْر عَبدون في حرف الدال من معجمه. [وجاءت أبيات ابن المعتز في معجم البلدان عند الحديث عن دير عبدون/ المجلة].

النقاد والمحللين والدارسين، الذين يضعون الأسس الموضوعية، لتكون أحكامهم محترمة عند مُخاطَبِيهم.

– ومن ناحية الشكل، عمد الشاعر إلى فعل معروف في اللّغة، والنَّحو، وهو: **كان التَّامَّة**، التي تعني: **الوقوع**. وكرَّر هذا الفعل، كأنَّه قال: وقع ما وَقَع، ثم سَكَتَ.

ومعلومٌ أنَّ كلمة: **ما**، في اللّغة العربية هي من صِيَغ العُموم. وقد استُعملت كثيراً في فصيح النثر، وبليغ الشعر، والأمثلة في ذلك لا تُحصى.

– وهناك في الشَّطر الثاني من البيت جُمْلَتانِ: الأولى منهما وهي: فظُنَّ خيراً، تُوحِي بالثانية، وتجذبها إليها، وهي: ولا تسأَلْ عن الخَبَر. فكأنَّ الجملة الأولى مقدِّمةٌ، وكأنَّ الجملة الثانية نتيجةٌ. مع إيجازٍ جيدٍ أَعانَ على جمال البيت وإشراقه.

ولعلَّ ما ذكرنا هنا عن مضمون البيت، وشكله، هو الذي جعل الحظَّ يصاحبُه منذ قرون، ويقع الاستشهادُ به عند السابقين واللاَّحقين. وقد قدمنا ملحوظتنا ورأينا الخاصَّ في ذلك.

– بعدَ هذا يُمكننا أن نتعرَّض للأشياء الأخرى التي أثارتْ هذه الخاطرة حول بعض أبيات ابن المعتز التي ألف الناس الاستشهاد بها في عدة موضوعات:

ونبدأُ بالبيت الشهير المحظوظ أيضاً عند مَن يزعمون أنهم مَحرومون في هذه الدنيا، وحِرمَانهم جاءهم –كما يزعمون– من أنَّ الدَّهر له تقديرٌ كبيرٌ لمنْ هُمْ راسخونَ في الجهل والبلادة والغباوة، ولذلك وجدوا في بيت ابن المعتز هذا:

كنْ جاهلاً أو فتجاهلْ تَفُزْ للْجهل في ذا الدَّهر جاهٌ عريض[٥]

(٥) ديوان ابن المعتز ص ٢٥٩.

ضَالَّتَهُمْ المنشودة، ومتَنَفَّسَهم الدائم، ليعبِّروا به، عن طريق نصح السامع، عما أصاب أَهل الجاه والمعرفة والمقدرة والعلم، من إبعادٍ عن كل ما يحقق رغباتهم، بخلاف أهل الجهالة الراسخين في البلادة والغباوة، فلهم جاهٌ عريض، يتمتعون به في دَهْرهم، أَو هكذا يقصِدُ ابنُ المعتز، ليتهكم، ويستخفَّ بالحياة والأحياء.

– وهذا البيت من شعر ابن المعتز هو في واقع الأمْر رسَالةٌ مفتوحةٌ من رجلٍ محروم مُهَمَّش في مجتمعه رغم أدبه، ونسبه، واطلاعه، وانغماره في حياة أهل الأدب والثقافة. وهذا شيء نفهمه في عُمق الدلالة وعُمق التحليل، لمرَكبات ابن المعتز، وعُقَده النَّفسية التي تظهر بشكل واضح في ديوانه وفي مؤلفاته الأخرى كما تظهر تردده، وتناقضه.

أمَّا فيما يرجع إلى الاستشهاد بهذا البيت على أنَّه «حِكمة»، أو «تجربةٌ»، أو «خِبْرةٌ»، فهذا — في رأيي– مما لا يسوغُ لا في الذَّوق السَّليم ولا في الواقع الذي عاش فيه، ويعيش الإنْسانُ مهما كانت الأحوال ومهما كانت أَزْمَةُ المفاهيم في تاريخ الحضارات قديماً وحديثاً. والشاعريةُ توحي في أحوال صعبة، وفي ظروف خاصة، تحيطُ بالشاعر فيشعر بالغَبْن، والتهميش، والإحباط. ثم يخلو بنفسه ليصبَّ مشاعِرَه، ورسائله المفتوحة إلى عصرِه، ومن يظنهم حرموه حقوقَه، في شكل قصائد، ومقطعات، وأبيات، لها وجود بارز في كثير من دواوين الشعر العربي: القديم والحديث.

وكما قلنا قبل **فإننا ننبه هنا على مراعاة مقاصد أصحاب النصوص قبل إقحامها في باب الاستشهاد.**

– فصاحب النص في هذا البيت عاش مهيضَ الجناح، فهو من شخصيات ذلك العصر الذين كان ينبغي إقصاؤُهم في نظر الحاكمين بأَمْرِهِمْ عن مراكز الأمر والنَّهي،

والصَّدارة، والترشيح للحُكْم المعروف في ذلك العصر.

– ومن قبيل هذا البيت «الجهلي» من شعر ابن المعتز، نجد أبياتاً أخرى يُسْتَشْهَدُ بها عند كثيرين، مِنها على الخصوص قوله(٦):

من يشتري حَسَبِي بأَمنِ خمول من يشتري أدَبي بحظ جهول

فكأن الشاعر ابن المعتز دخل سوقاً من أسواق بَلدته، يحاول أن يقوم بعملية تجارية مُرْبِحَة، فيها بيعٌ وشراء:

– يبيعُ ما وَرِثَهُ من جاهٍ وقَدْر، وما يكلفُه ذلك من هَلَع وخوف وحَسَد،

– ليشتري بذلك «أَمْنَ خمول»

– فيريح نفسه، ويريح الآخرين.

وبطبيعة عُقَد ابن المعتز ومركَّباته النفسية، لم يجد أيَّ غَضَاضة في القيام بهذا العَرض في هذه السوق التي لا أظن أنه وجد فيها مشترياً، أو مهتماً بهذا العَرض.

– ومنها: بيتٌ آخر يتحدث فيه عن لَذَّةِ النّاس المجانين، فيقول، مِمَّا يَسْتَشْهِدُ به كثيرون(٧):

قالوا: جُنِنْت بلا شكٍّ فقلتُ لهم: ما لذّةُ العيش إلاَّ للمجانين

فما هي هذه اللَّذة التي يزعم ابنُ المعتز في هذا البيت أنه وَجَدَها في: **الجنون**، كما وجدها غيره من **المجانين** حتَّى يقع الاستشهاد بالبيت؟

نحن موضوعيّاً لا نستنكر الخيالَ الشعري، ولا المجازَ البياني ولا التصوير الفني عند الشعراء، بل إنها من عناصر الجمال التي كان الشعر بها فناً جميلاً تتوارثه

(٦) ديوان ابن المعتز ص ٣٤٥.

(٧) الديوان ص ٣٧٧.

الثقافات والحضارات ويثير في الإنسان على مَرِّ العُصور كامن المشاعر والإحساسات بألوان شتَّى من التعبير.

وهذا شيءٌ **واستشهاد كاتب أو مفكر أو ذي رسالة في الحياة الاجتماعية والإنسانية بقول ابن المعتز هذا:**

«**ما لذة العيش إلا للمجانين**».

شيء آخر! ولو كان ذلك من باب التهكم. فابن المعتز وغيره من أصحاب هذه الرسائل المفتوحة وهذه الانفجارات المتوالية ينبغي أن تُفْهَمَ على حقيقتها: أقوالُهُم وتصرفاتُهُم، فهي ردُّ فعل نفسي، وفنٌّ من القول له حدودُه وظروفُه الخاصَّة.

وهذا البيت بأسلوبه الحِوَاريّ شكلياً: قالوا... وقُلتُ... يذكرنا بأُسلوب الشاعر: عمر بن أبي ربيعة الذي كان فارس هذا الميدان وله فيه جولات معروفة متداولة.

كما يذكّرنا سابقُه في هذا المقال:

كنْ جاهلاً أو فَتجاهلْ تَفُزْ للجهلِ في ذَا الدَّهر جاهٌ عريض

بأبيات وأقوال عديدة لشعراء مرموقين معروفين، ولهم مكانة في الأدب العربي، ودواوينهم تفيض بالمعاني الإنسانية، والإشراقات الفنية.

– وأقربُهم إلينا الآن شاعر المعاني أبو الطيب المتنبي الذي له بصماتٌ معروفة في عدة موضوعات من محاسن الحياة ومباذلها. فنجده يقول في: «انفجارته المعهودة» و«رسائله الشعرية المفتوحة» التي بثَّها في ديوانه مُؤرخاً «أطوار» حياته، التي لا تخلو في جملتها من: فَرْدِيَّة، وأنانية، وتبرُّمٍ بالحياة والأَحياء.

ذُو العقلِ يَشْقَى في النّعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم[٨]

وبيتُ المتنبي هذا لا يقل «حُظْوَةً» في الاستشهاد به عن أبيات ابن المعتز عند المؤلفين، والمتحدثين، والكاتبين، منذ سمعه السامعون وقرأه القارئون في ديوانه، الذي شرَّقَ وغرَّب، ومنذ القرن الرابع الهجري حتى صار — مع بعض أبيات الشاعر ابن المعتز– وأبيات شعراء آخرين، من الاستشهادات المبتذَلَة، التي نتجاوزُها عندما نسمَعْها، أو نَرَاها مكتوبةً عند مَن يستشهد بها، في موضوع ما في عصرنا هذا.

– ولعل القارئ الكريم أدرك من هذه المقالة الموجزة، أنَّ الأمر يتعلَّق بالإكثار من هذه الاستشهادات، ولا يتعلَّق بأصحاب الأبيات، إلا بإيضاحات، وإشارات لائقة بالموضوع. فلابن المعتز مكانته الشعرية التي لا تُنسى، ولا تُنَسَّى. ويوم قُتل بَعْد الفِتْنَةِ الشهيرة ببغداد، وكانت فتنةً عمياء صَمَّاء لا نَدخل الآن في تفاصيلها التاريخية وقد أودَتْ بحياة هذا الأمير الشاعر الأديب المؤلف كما أَودَتْ بحياة زميله و«وزيره» في يوم وليلة الأديب المعروف محمد بن داود بن الجراح. صاحب كتاب: «الورقَة» المطبوع المتداول...

– رثاه الشاعر ابن بسَّام البغدادي ببيتين شهيرين[٩]:

للِه درُّك مِنْ ميْت بمضْيعةٍ ناهيك في العِلم والآداب والحسب
ما فيه لوٌ ولا ليت فتنقصه وإنما أدركتْه حِرفة الأدب[١٠]

(٨) ديوان المتنبي: ضمن قصيدة مطلعها: «لهوى النفوس سريرةٌ لا تُعلم».

(٩)أبو الحسن علي بن محمد بن نصر بن منصور المتوفى سنة ٣٠٣ هـ. وله ترجمة شهيرة في عدة مصادر وقد سبق للمرحوم مصطفى صادق الرافعي أن ذكر البيتين في ص٣٥ ج١ من كتابه تاريخ آداب العرب.

(١٠) انظر البيتين في فوات الوفيات ج١ ص٥٠٦. ط. القاهرة ١٩٥١م.

ويظهر حسب الاستقراء والتتبع أن هذا الشاعر ابن بسَّام كانت له صلات ومحاورات ومساجلات مع الشاعر ابن المعتز الذي عاصره وتتبع خطواته وإنتاجاته حسبما ورد في مصادر شتى.

ولا ينبغي أن نتجاوز هذا التعبير: «أدركته حرفة الأدب» دون أن نقف عنده قليلاً.

فقد تحدث أبو منصور الثعالبي في كتابه: «ثمار القلوب[١١] في المضاف والمنسوب» عن هذا التعبير فقال:

«حِرفة الأَدب. قال الخليلُ: حِرفة الأَدب آفةُ الأدباء... وفي كتاب: «المبهِج»[١٢] حِرفَةُ الأَدب حُرْفةٌ...» [١٣].

ثم استشهد أبو منصور الثعالبي ببيت ابن بسَّام في رثاء ابن المعتز بعد أن حلت به نكبته الشهيرة.

ولم يكن ابنُ بسام البغدادي هو الشاعر الوحيد الذي رثى ابن المعتز الشاعر الأديب الكاتب المِفَنّ، بل إننا نجد في مصادر أخرى شعوراً بالخسارة الأدبية التي تجلت في نفس ابن بسَّام كما تجلت في الوسط الأدبي، فبكاه ابنُ بسام وكانت بينهما علاقة خاصة، كما أشرنا إلى ذلك قبلُ. ورثاه من شعراء العصر آخرون.

– ونجد في كتب الأدب وفنون البلاغة والموازنات والمقارنات بين مشاهير الشعراء مكاناً بارزاً للاستشهاد بأبيات للشاعر ابن المعتز بعضها قِمَّةٌ في: التشبيه

(١١) ص ٥٢٩. ط. القاهرة ١٩٠٨م.

(١٢) في تفسير أسماء شعراء الحماسة لابن جني.

(١٣) الحُرفَة: الحِرمان، وسوء الطالع.

بأنواعه، والاستعارة بأصنافها، والوصف بأساليبه، مع الانسجام والدِّقَّة في الإشارة إلى المعاني الطريفة.

ويحضرنا هنا قوله:

عجباً للزَّمان من حَالتيْه وبلاء دُفِعتُ مِنْهُ إليه
رُبَّ يوم بكيت منه فلمَّا صِرتُ في غَيرَه بكيتُ عليه

ولعل قُرائي هنا لا يحتاجون في هذه «الخاطرات» إلى الإشارة إلى ما قدَّمه صاحبُ «الأغاني» في أجزاء موسوعته من أشعار وألحان رواها عن ابن المعتز بواسطة الأسانيد التي يستعملها، وبذلك أنصف هذا الشاعر المِفَن الذي كان في عصره عارفاً بالألحان والموسيقى ووقف صاحبُ «الأغاني» وقفاتٍ فنيةً أدبيةً شعرية حول ما أجاد فيه ابن المعتز وما توسَّط فيه وما قصَّر فيه من قصائده، ومقطَّعاته، وأبياته. وذلك شيء كثير.

ولقد سار في نفس الاتجاه الأَدَبي النّقديِّ البيانيِّ الأَخَوانِ الخَالِدِيَّان في كتابهما: «الأشباه والنَّظائر» حيث إن هذا الكتاب اشتملت أقسام جُزْأيْه على كثير من أبيات ومقطعات الشاعر ابن المعتز مع مقارنات ومتابعاتٍ وتناولٍ أَدبيّ فيه تقدير وتفهم لأشعار هذا الشاعر العباسي المغْبون، ولاسيما من جهة المعاني المبتكرة، والصفات المستحدثة بل إنَّ الأمر بلغ بصاحبي كتاب الأشباه والنظائر إلى أنْ نصَّا في كتابهما هذا على:

– أنَّهما ألَّفا كتاباً معروفاً باختيار شعر ابن المعتز والتَّنبيه على معانيه(١٤).

– وعلى انتقاد كتاب «البديع» لابن المعتز لأنه في نظرهما أغفل بعض الأنواع(١٥) من البديع.

(١٤) انظر ج٢ ص ٥٣ وص٧٧. ولا نعلم –الآن– عن هذا الكتاب شيئاً...!!.
(١٥) انظر ج٢ ص ٣١٠.

– وإذا أمكننا أن نرجع إلى الوراء لنشاهد حظ بعض أمصار المغرب العربي وما لها من اهتمام بأدب ابنِ المعتز الأمير الشاعر الكاتب، فإننا نكتفي هنا بالإشارة إلى:

– كتاب: زهر الآداب وثمر الألباب لأبي إسحاق الحصري،

– وكتابه الآخر: المصون في سر الهوى المكنون وإننا لنجِد عند هذا الأديب المؤلف الذي عاش في القرن الخامس الهجري بمدينة القيروان، نصوصاً حية من أدب ابن المعتز شعراً ونثراً مع تعليقات ومقارنات مما يدل على أن الحصري كان ريَّان من أدب ابن المعتز عارفاً لمؤلفاته وآثاره.

ومن الطريف أنه ذكر بيتيْن لابْن المعتز يهجو بهما «ابن بسَّام» وهما:

من شاء يهجو عليّاً فشعره قد كفاهُ
لو أَنَّه لأبيهِ ما كان يهجُو أباهُ

– ولَقَدْ كَانَتْ أَبياتُ الشعر التي استشهد بها ابنُ رشيق في كتابه «العُمدة» وافرةً محظوظة، حيث إننا نجد هذا المؤلف كان على اطلاع واسع على شِعْر عبد الله بن المعتز فاستشهد بنحو الخمسين بيتاً من شعره، منها قولُه في وصف نسوة:

أَشَرْنَ على خَوْفٍ بأَغصان فِضَّةٍ مُقَوَّمةٍ أَثمارُهُنَّ عَقيقُ

وقوله:

لئِنْ نزَّهتَ سمعَك عنْ كلامي لقد نزَّهتُ في خَديْكَ طَرْفِي
لَهُ وجهٌ به يُصبي ويُضني ومُبْتَسَمٌ به يُشقِي ويَشْفي

وقوله يصف خَيلاً..[١٦]:

صَبَبْنَا عليها ظالمينَ سياطنا وطارتْ بها أَيد سِراعٌ وأَرْجُلُ

(١٦) انظر العمدة: ج١ ص ٢٦٩ وص ٢٩٥ وج٢ ص٥٢. ط. القاهرة ١٩٣٤.

كما أنَّ معاصر ابن رشيق أبا الطاهر إسماعيل بن أحمد بن زيادة الله التجيبي البرقي في كتابه الشهير المفيد الذي شرح فيه: «المختار من شعر بشار» اختيار الخَالدِيَّيْن، يستشهد كثيراً أثناء شرحه وتعليقه ونقده بأبيات ومقطعات ذات معانٍ وتشبيهات وكنايات واستعارات لطيفة لابن المعتز، وذلك في نحو ثلاثين مرة من كتابه المذكور.

منها قول ابن المعتز(١٧):

تعاونت فيه من قرن إلى قدم
محاسن بدع تستوقف الحدقا
فكم تحير من عقل ومن نظر
فيه وكم تاه من قلب وكم خفقا

ومنها قوله في حاسديه:

ما عابني إلا الحسو د وتلك من خير المناقبْ
فإذا ملكت المجد لم تملك مودّات الأقاربْ
والمجد والحساد مقـ رونان إن ذهبوا فذاهبْ
وإذا فقدتَ الحاسديـ ـن فقدتَ في الدنيا الأطايِبْ

ولو فرضنا أَنَّ مؤرخاً من الباحثين في عصرنا هذا استشارنا لندلَّه على مصدر معاصر لعهد المعتضد العباسي ومعاركه ولاسيما مع الزنج، وموقفه من عدة شخصيات حاكمة في عصره، لما تَرَّددنا – بناءً على معرفتنا بمنظومة ابن المعتز – أن ندله عليها وعلى عدة أبيات منها يصح الاستشهاد بها في تصوير أحداثٍ وأشخاصٍ وأعمالٍ

(١٧) المختار من شعر بشار ص ٦٨ – ٦٩ و٢١.

ومحاسن ومباذل كان ابن المعتز قد جمعها في منظومته الرجزية التي أرّخ بها عهد الخليفة العباسي المعتضد، والتي تبلغ ٣٦٣ من الأبيات.

وإذا كنَّا لا نجهل أَن رجزية ابن المعتز يغلب عليها طابع التاريخ والتسجيل وربط الأحداث بغَمرات المعتضد فإن بعضَ أبياتها يغلب عليه الطابع الأَدبي والخيال والمبالغة وما إلى ذلك.

وأبيات ابن المعتز في هذه الرجزية كأنها تسير مع تاريخ معاصره المؤرخ الشهير ابن جرير الطبري في خط واحد، والأمر يحتاج إلى مزيد من المقارنة والتعمق في الاستنتاج.

ومن الطريف في هذا العصر أن نجد د. طه حسين حينما كان يُحاضِرُ عن شاعرنا ابن المعتز يقدّم لسامعيه ما يأتي[١٨]، قائلاً:

«... وكان ابنُ المعتزِّ رفيقاً في فَنِّه هذا، وفي حبّه، وفي لهوه، زعموا أنَّ أصحابَه اجتمعوا إليه ذات يومٍ وكانتْ تُغنيِّهم جَاريةٌ قبيحةُ الوجه جِدّاً، وكان صوتُها عَذْباً، وكان ابنُ المعتز مفتوناً بصوتها فكان يداعبُ هذه الجاريةَ القبيحةَ، ويُسْرِفُ في مُداعبتها، فلما قامتْ قال له بعض نُدمائِه:

– ما الذي تُحبُّ في هذه الجارية الشَّوهاء؟

– فقال الشاعرُ ابن المعتز هذين البيتيْن:

قَلْبِي وثَّابٌ إلى ذَا وذَا ليس يرى شيئاً فيأبَاهُ
يَهيمُ بالحُسنِ كما يَنْبغي ويَرحَم القُبْحَ فَيهْوَاهُ

(١٨) انظر كتاب: من حديث الشعر والنثر. د. طه حسين ص ١٥٨ ط. دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٩م.

* * *

من المصادر والمراجع

- الأشباه والنظائر للخالديَّيْن القاهرة ١٩٥٨م.
- «ابن المعتز» تأليف د. محمد عبد المنعم خفاجة. ط. القاهرة ١٩٩١م.
- «البصائر والذخائر» تأليف أبي حيان التوحيدي. ط. بيروت ١٩٨١م.
- «تاريخ الشعر العربي» تأليف د.نجيب البهبيتي ط. ثالثة ١٩٦٧م.
- «تاريخ الأدب العربي» تأليف د.عمر فرّوخ. ط. بيروت ١٩٨١م.
- «ديوان ابن المعتز» تأليف ابن المعتز ط. بيروت ١٩٦٩م.
- «زهر الآداب وثمر الألباب» لأبي إسحاق الحصري ط. القاهرة ١٩٢٥.
- «العُمدة» لابن رشيق القيرواني ط. القاهرة ١٩٣٤م.
- «فوات الوفيات» لابن شاكر الكتبي. ط. القاهرة ١٩٥١.
- «المختار من شعر بشار» شرح التجيبي ط. بيروت (مصورة).
- «معجم البلدان» ياقوت الحموي ط. بيروت ١٩٥٧.
- «الموشح» للمرزباني ط. القاهرة بدون تاريخ.
- «من حديث الشعر والنثر» د. طه حسين ط. القاهرة ١٩٦٩م.
- «الورقة» لابن الجراح ط. القاهرة ١٩٥٣م.
- «وفيات الأعيان» لابن خلكان ط. القاهرة ١٩٤٨.